إننا أثبتنا في الماضي قدرتنا على إنشاء مثل الحضارة المرتقبة ، ومهما قيل عن حضارتنا من قبل الخصوم والجاحدين فإن أحدًا لا ينكر أنها كانت أكثر من الحضارة الغربية الحديثة رحمة بالناس ، واقترابا من المثل الأعلى للإنسان في مختلف عصوره وأطواره . وما دمنا قد استطعنا أن نقيم تلك الحضارة الإنسانية الرائعة في عصور التخلف العلمي والفكري ، فإننا أقدر على أن نقيم مثل تلك الحضارة في عصور التقدم العلمي وانكشاف المجهول من الكون شيئا بعد شيء . إننا حين نمسك بزمام الحضارة المرتقبة لن نتخذ من الوصول إلى الفضاء دليلا على إنكار وجود الله ، ولا من السينما آلة للإغراء ، ولا من المرأة متعة للجسم ، ولا من التقدم الحضاري أداة لاستغلال الشعوب المتخلفة واستثمار خيراتها وإذلال كرامتها . تلك هي الأسباب أو بعض الأسباب التي تجعلنا الأمة الوحيدة التي تستحق حمل لواء الحضارة بعد الغربيين لإنشاء حضارة جديدة تخفف من شقاء الإنسان ، وتحقق له قسطا أكبر من الأمن والطمأنينة والحياة الإنسانية المستقرة وإذا رجعنا إلى أصول عقيدتنا ، وجدنا كتابنا المنزل يشير بصراحة إلى انفرادنا من بين أمم العالم بجدارة القيام بالدور الحضاري الذي تتطلبه الإنسانية في عصرنا الحاضر ، لا لامتيازنا عن غيرنا عرفيا أو جنسيا أو فكريا ـ فتلك خرافة لم يؤمن بها الإسلام يوما ما ـ بل لما ذكرناه في السببين الأول والثاني مما ننفرد به عن غيرنا . فالآية الكريمة التي تقول لنا : كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (1) إنما تشير بذلك إلى خصائص عقيدتنا وأخلاقنا التي أهلتنا لأن نكون خير أمة أخرجت للناس . والآية الكريمة التي تقول عنا : ﴿ الَّذِينَ إِن تَكَنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَاتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ (1) إنما تشير بذلك إلى خصائص حضارتنا التي جعلتها خير حضارة أخرجت للناس . لا في عصر دون عصر ، ولا في جيل دون جيل . وإذا كنا قد استجبنا لنداء القدر فحملنا اللواء مرة واحدة ، وقدنا الإنسانية إلى مراتع الأمن والهدى والنور ، ثم تركنا اللواء وتهربنا من أداء الرسالة ، فإن هذه الآية الكريمة لتستحث اليوم خطانا لنحمل اللواء مرة أخرى ، ونرفع المشعل من جديد ننقذ به الشعوب التي تتيه اليوم في ظلمات الخوف والقلق والشهوة والظلم واليأس المميت ، ثم لا تجد مخلصا من ذلك إلا بالانتحار : انتحار الأفراد بالأسلحة أو السموم القاتلة ، وانتحار الشعوب بالقنابل الذرية والهيدروجينية ! سيستخف بهذه الفكرة ـ فكرة قيامنا بدور حضاري جديد ـ فريقان من الناس : الفريق الأول : أولئك الذين استعبدتهم الحضارة الغربية ، وسلبتهم الثقة بأمتهم من أن تقف من الغربيين موقف الند من الند ، فضلا عن موقف القيادة . وهؤلاء قد عانت أمتنا منهم كثيرا من المتاعب والنتائج الفكرية السيئة ، ونحمد الله على أن هؤلاء أخذوا يتقلصون شيئًا فشيئًا ، بتأثير حماقات هذه الحضارة وجرائمها على أصحابها وعلى الشعوب المستضعفة ، وبنمو الوعي الفكري والسياسي في أمتنا نموا يبشر بأحسن النتائج . وإذا كانت التبعية السياسية (للغرب المستعمر) قد انقضى أمرها وذهب معها ذلك الطراز القديم من قادتنا السياسيين الذين كانوا يرون ذلك ضربا من المستحيل ، فإن التبعية الحضارية للغرب المتحضر) سينقضي أمرها ، وسنتخلص من ذلك الطراز القديم من أدعياء قيادة الفكر الحر الذين لم يكونوا في حقيقة الواقع إلا مظهرا ذليلا من مظاهر الجهل والعبودية والغباوة ! . الفريق الثاني : أولئك الذين يؤمنون بقرب انهيار الحضارة الغربية بعد أن كثرت شرورها ، ولكنهم لا يتفاءلون مثل تفاؤلنا بإمكان قيامنا بدور حضاري جديد ونحن على ما نحن عليه من بون شاسع بين واقعنا وواقع أمم الحضارة ، ويرون أن الحديث الآن عن تسلمنا لقيادة الحضارة ضرب من الخيال وجري وراء العاطفة . ونحن حين نتحدث عن هذا الموضوع لا نزعم أن انهيار الحضارة الغربية وانتقال مركز القيادة الحضارية إلينا سيتم في عشر سنين أو عشرين أو نصف قرن مثلا ؛ فلقيام الحضارات وانهيارها سنن طبيعية لا تتخلف ، وإذا بدأ الخلل في قاعدة قلعة حصينة فقد يبدو للعيان أمدًا طويلا أنها في ذروة قوتها ، وهي مع هذا آخذة في الانهيار وستصبح ركاما لقد مررنا منذ بدء نهضتنا بمراحل يقفو بعضها إثر بعض اقتفاء طبيعيا ، فقد استيقظنا على واقع مؤلم واستعمار جائم ، وبدأنا نتعلم وننظم حياتنا وفق الحياة التي تفرضها الحضارة الحديثة ، وهي الحضارة الغالبة على مقدراتنا الفاتحة لبلادنا ، ثم بدأنا نسير في طريق القوة واستغلال ثروات بلادنا والاستغناء بقدر ما نستطيع عن المنتجات الحضارية المصنوعة في الغرب ، والهدف الذي نسعى إليه الآن هو اللحاق بركب الأمم المتحضرة حتى نقاربها في القرة ومستوى المعيشة ، وفي هذه المرحلة ينبغي أن نصنع لأنفسنا مقياسا حضاريا نستمده من مقاييسنا الحضارية على ضوء مشكلات الحضارة الحديثة وحاجياتنا وظروفنا ، كما يجب علينا أن نحدد خطوتنا المقبلة بعد الانتهاء من هذه المرحلة ، ونجري وراء الذين سبقونا بمئات السنين يأخذنا الإعياء من كل جانب ويكون كل همنا أن نلحق بهم ونكون مثلهم ؟ أم أن نرسم لأنفسنا طريقا آخر يقفز بنا إلى المقدمة من غير أن ينالنا نصب هذه الأمم المتحضرة وإعياؤها وآلامها وانهيارها ؟ نحن بحكم الواقع لا نستطيع أن نصل ـ في بضع السنوات القادمة ـ إلى مستوى القوة المادية التي وصل إليها الغربيون ، فليس من السهل أن تكون لنا خلال هذه المدة أقمارنا الصناعية وصواريخنا عابرة القارات ، وهب أنا وصلنا إلى ذلك

Summarized by © lakhasly.com

في بضع سنين ، فإن الغرب يكون قد سبقنا أشواطا أخرى في هذه الميادين فالطريق الصحيح هو أن نستمر في استكمال قوتنا إلى غاية ما نستطيع مع وضع مقياس حضاري جديد لنا وللإنسانية كلها ، ونحن نملك كل إمكانيات الاستقلال في تخير الطريق الصحيح للحضارة ، ومعنا الوقت الكافي لدراسة مقاتلها ومشاكلها لا لننجو منها في مرحلتنا الحاضرة ، فهذا ما لا سبيل إليه ، بل لتنجو منها ونخرج عن دائرة سيرها في مرحلتنا المقبلة ، وهذا ما نجد السبيل إليه ممهدًا لو آمنا بما عندنا وبمقاييسنا التي أثبتت التجارب صحتها ، وبمن يتألف منهم ركبنا الحضاري ، أي بشعبنا العظيم الذي لم تمت فيه جذوة الطموح ، ولم تخب عنده نار النضال ، ولم يستسلم للغزاة رغم شدة الضربات وتكرر الغزوات وتعدد الخيانات ! . إننا إذا فعلنا ذلك نكون قد أوجدنا أكبر منعطف لتاريخ الإنسانية في عصرها الحديث ، وحسبنا أننا نسيطر بذلك على قارتينا الكبيرتين آسيا وأفريقيا سيطرة روحية وأخلاقية تجعلهما أسعد من باقي القارات وأكثرها أمنا واطمئنانا ، ويومئذ لا بد من أن يلتفت إلينا العالم الغربي المنهوك القوى التائه الطريق ، ويأخذ عنا ما يخفف من شقائه وآلامه ، يومئذ تنتقل إلينا قيادة الحضارة وتوجيه التاريخ قبل أن يقرر نهاية الإنسانية بعض (المجانين) ! . قد أكون مع هذا لا أزال مسترسلاً وراء الخيال ، فحوادث التاريخ لا تسير سيرا رتيبا كما يقوم في أذهان الكاتبين ، ومن يدري ماذا سيكون غدًا ؟ فهذا العالم مليء بالمفاجآت ، وكان يهمني أن يصغي إليها أولئك الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، من صفوة شبابنا ورجال الفكر المؤمن بكرامتنا على الله وعلى التاريخ ، والعدل في الحكم ، هذا مع مساهمتهم في صميم الحضارة ووجودهم في صميم الحياة ، سواء كانوا ملوكا أم علماء ، أم زهادًا ، أم فلاسفة ، أم قُوَّادًا ، أم تجارًا ، أم عمالاً ، رجالا ونساء ، شيوخا وشبابًا ، أغنياء وفقراء ، إنها نماذج للكمال الإنساني الذي لم يكن يعيش في خيال الفلاسفة والحكماء ، بل كان يعيش على ظهر الأرض مع أهل الأرض . هذه الروحانية الإيجابية بأمثلتها الرائعة هي مما تفردت به حضارتنا عن سائر الحضارات قديمها وحديثها ، فلقد عرف التاريخ رجالاً روحانيين في الأمم المختلفة وخاصة في أمم الشرق الأقصى ، مترفعين عن المساهمة فيها ، يعيشون في الأديرة ورؤوس الجبال أو في المغاور والصحارى ، أما نماذجنا الروحية في تاريخ حضارتنا فقد كانوا يخوضون معركة بناء الحياة بكل ما تتطلبه المعركة من عمل وجهد وتضحية وفداء ، وهذا هو سر الروعة في هذه النماذج الروحية العجيبة في تاريخ الحضارات . والقصد اليوم من نشر هذه الأحاديث أن نلفت الأنظار إلى هذه الروائع كدليل على استطاعتنا بناء حضارة أكمل وأسمى من هذه الحضارة ، وأن نذكر الجيل الجديد من أبناء أمتنا بواجبهم في بناء حضارة إنسانية كريمة كما بني آباؤهم أمثالها ، وهذا أنسب الأوقات لمثل هذا التذكير ، فأمتنا تدخل الآن باب التاريخ من جديد دخولا كريما فيه كل تحفز وانطلاق لبناء مستقبل أفضل وأكمل ، وفي أمتنا بقايا من سجايا الآباء والأجداد فإذا سمعت حديث أمجادهم وآثارهم وحضارتهم هزها ذلك هذا عنيفا ، ودفعها إلى العمل دفعا حثيثا . فلا تسمعوه ما أقول فإنه شجاع متى يُذكر له الطعن يشتق ولسنا نقصد من عرض هذه الروائع الادعاء بأن كل ما في حضارتنا جميل ومشرق ، فليس في التاريخ حضارة ليست لها هفوات ، وإنما القصد أيضًا أن نثبت أن الجوانب الإنسانية الخالدة في حضارتنا أقوى وأجمل ، وأن نرد بذلك على افتراء الذين يزعمون الحضارتنا كل عيب ونقيصة ، ويتعمدون أن يحذفوها من قائمة الحضارات الأصلية ، وأن نحبط بذلك كيد الذين يعملون على أن يصرفوا أنظار جيلنا الحديث عن روائع آثارنا الحضارية ، ليجذبوهم إلى حضارة تكشفت مقاتلها للناس ، وإلى تاريخ أمم إن كانت لها صفحة واحدة من الفضائل ، فإن لها آلاف الصفحات من النقائص والرذائل ، وهذا هو هدف الاستعمار الذي يسعى إليه جاهدًا ، وذلك هو صنيع أذنابه ودعاته الذين وإذا كنت قد عرضت في هذا الكتاب نماذج من روائع حضارتنا فإني لأرجو أن يتم الدارسون لتاريخ حضارتنا ما بدأته من عرض هذه الروائع ، بشكل أتم وبحث أوفى وبيان أبلغ وأنصع ، لإعطاء جيلنا الحاضر صورة حقيقية ، كاملة الروعة عن هذه الحضارة التي كانت تشع النور وتبعث الحياة في القرون الوسطى

Summarized by © lakhasly.com